مذكراتي من كابل إلى بغداد الجزء الرابع

وصلنا إلى آخر مكان في أفغانستان وهو جبـــل لـــيس بالمرتفع جداً ولكن يعتبر الضفة المقابلة لطاجيكستان لأنــه بين هذا الجبل وطاجيكستان نهر جيحون ، لا أستطيع حقيقة أن أصف شعوري في تلك اللحظة وأنا أشعر حينها أنني قد انتهيت من سفرة ورحلة طويلة جداً قطعناها من باكـــستان مروراً بأفغانستان حتى نصل إلى طاجيكستان وفرحتي أيضاً بتحقيق رغبتي بالوصول إلى أرض الجهاد ، بـــدأنا بـــتزول الجبل وكنا نشاهد مجموعة مـــن الأشـــخاص في الجانـــب الطاجيكي وهم يشيرون لنا ويتحركـــون حـــول صـــخرة ضخمة جداً وكأن المكان الذي يتواجدون بـــه هـــو مقـــر أقامتهم وعند وصولنا إلى أسفل الجبل أصبح الحاجز بيننـــا وبين الشباب في الضفة المقابلة خمسون متراً تقريباً وهو نهـــر جيحون فأخذوا ينادون علينا ويطلبون منا الانتظـــار حـــتى

يأتوا لنقلنا بالقارب ، بعد قليل تحرك أحد القوارب وفيه شخصين باتجاهنا وعندما وصلوا رفع أحدهم صوته بالسلام علينا على عجالة وطلب منا أربعة أشخاص للركوب معه لينقلنا على دفعات والسبب في ذلك أن التيار في نهر جيحون في تلك المنطقة كان قوياً جداً بحيث يصعب فيه التحكم في بالقارب فلذلك كان ينقلنا على شكل دفعات متتالية ، وقبل أن يأتي دوري سألت أحد الأشخاص الذين معي عن الشخص الذي كان يقود القارب وسلم علينا فأخبرني أنه القائد خطاب رحمه الله (كان يسمى في تلك الفترة وما قبلها أيام أفغانستان بابن الخطاب ولكن مسمى خطاب جاء أثناء وجوده في الشيشان وتغير اسمه من ابن الخطاب إلى خطاب اختصاراً) ، وعندما جاء دوري وركبت معه في القارب وسلم علينا وأخبرنا أنه مسرور بحضورنا وسلامتنا واستغرب جداً من مجموعتنا كلها عندما علم أننا قطعنا المسافة من تشياب إلى طاجيكستان في يوم ونصف بدلاً من ثلاثة أيام وقال يظهر لنا أنكم مجموعة نشيطة جداً وستناسبوني في العمل فقد جئتم في وقت

أحتاجكم فيه ، حقيقة أخذت أتأمل في هذا الشخص فقـــد كان شاب في منتصف العشرينات كث اللحية طويل الشعر قوي البنية طويل الجسم تجد من نبرة صوته الثقة بـــالنفس والاعتداد بها بعيداً عن الغرور مـــع بـــساطة في التعامـــل وتواضع شديد فهو الشخص الذي عرف في أيام أفغانستان في مركز أحد في جلال آباد وضـــربت سمعتـــه الآفـــاق في طاجيكستان بسبب العمل والمجهود الجبار الذي قام به هناك لإحياء الجهاد ولما كان يمتاز به من شخصية قوية وبسيطة في نفس الوقت ، أذكر هنا قصة حدثت لـــه في أول أيامـــه في أفغانستان عندما جاء للجهاد وكـــان وقتـــها في معـــسكر التدريب حيث حصلت له مشكلة هناك حيث كان النظـــام في المعسكر يمنع ما يسمى بالمهربات وهي الأكل الذي يقوم الشباب بتهريبه إلى المعسكر مـــن حلويـــات وبـــسكويت وعصير أو غير ذلك في محاولة منهم لسد الجـــوع الـــذي يعانونه في المعسكر فقام خطاب حينـــها بتـــهريب بعـــض الأغراض وأثناء التفتيش وجدت لديه فعوقب ولكن المسألة تطورت وأصبحت مشكلة كبيرة وطرد خطاب من المعسكر

مع أن الأمر لم يكن يستحق لكن القائم علـــى المـــشكلة لم يحسن التصرف في حلها وبعد أن طرد خطاب من المعسكر قرر في نفسه الانتقام فذهب إلى معسكر آخر وبدأ التدرب فيه وكانت فكرة انتقامه أن يثبت للآخـــرين أنـــه لـــيس بالشخص الفاشل وأن الخطأ منهم و ليس منه فبدأ تدريبـــه وأخذ في الانتقال من دورة إلى دورة ومـــن معـــسكر إلى معسكر حتى فاق أقرانه في التدريب وأبدى مهارات عاليـــة أذهلت مدربيـــه في شخـــصيته وفي أخلاقـــه وفي قدراتـــه العسكرية وبذلك أصبح محل اهتمام ومحبة كل من عرفـــوه فرحمك الله يا خطاب .

بعد أن وصلنا إلى الضفة الطاجيكيـــة بـــدأ الـــشباب المتواجدون هناك بالسلام علينا وبعد أن اكتمل نقل الشباب جميعاً جمعنا خطاب وسلم علينا واحداً واحداً ورحـــب بنـــا وطلب منا الاستراحة حتى يتم انتقالنا إلى مراكز أخـــرى ، بدأت أتأمل المكان وأنظر إلى الصخرة التي رأيتها من فـــوق الجبل وأنا أهبط باتجاه النهر فقد كانت هذه الصخرة كبيرة جداً بارتفاع خمسة أمتار وعرض عشرة أمتار اتخذها الشباب

هناك مركزاً لهم بسبب وجود كهفين تحتها كان أحدهما مكان للنوم والاستراحة وحفظ العتاد والآخر عيادة للمرضى والجرحى ، بدأنا نتعرف على الوضع هناك حيث حذرنا الشباب من التحرك في أماكن مكشوفة في حالة تحرك الطيران الروسي المقاتلة أو المروحية والاختباء في حالة تحليقهما وعدم الابتعاد كثيراً عن المركز إلا بإذن ، وكان المكان هناك جميل جداً حيث أن المكان يقع بين جبلين في وادي يمر فيه نهر جيحون ويقع هذا المركز الخلفي على النهر مباشرة فكان كل من يعود لهذا المركز الخلفي لأي سبب من الأسباب يتمتع بوجبة من السمك الطازج الذي يصطادونه من نهر جيحون باستخدام القنابل اليدوية أو قذائف RPG7 ، وفي ثاني يوم استيقظت وأنا مرهق وتبين أني مصاب بالملاريا فاضطررت للبقاء لمدة أسبوعين في العيادة من أجل العلاج كنت حينها أتمتع بوجبات خاصة لا تقدم إلا للمرضى من أجل العناية بصحتهم وهي عبارة عن الطماطم والبطيخ والسمك .

وبعد أن استرديت عافيتي ولله الحمد تحركت باتجاه مركــز متقدم وعند وصولي كان الشباب في حالة عمل دائم حيث أن المنطقة كانت جبلية ووعرة جداً فقام خطــاب بــشراء معدات لحفر الطرق وهي يدوية تعمل بالمولدات الكهربائية ونقلها إلى طاجيكستان حتى تساعد في شق الطرق هنــاك وكان مضطراً لذلك كونه لا يوجد طريق يمكن الوصول من خلاله إلى المراكز الروسية إلا من خلال هذه الجبال ، بدأت العمل مع الشباب وكنا نتناوب في الحفر بالمعدات طــوال النهار وفي الليل ننام ونتناوب على الحراسة وظللنــا علــى هذه الحالة لعدة أسابيع حتى استطعنا شق الطرق وتجهيزهــا لنقل الأفراد والدواب التي تنقل الأسلحة والمئونة إلى الخط الأمامي والخنادق الأمامية ، وخلال هذه الفترة تعرفت على الشباب هناك وبدأت آلف الجو هناك وأتعايش مع طبيعــة المنطقة القاسية فازداد حبي للجبال أكثر هنــاك وفي تلــك الأثناء تعرفت على أبو الوليد الغامدي رحمه الله الذي قتــل في الشيشان وكان نائباً لخطاب في الشيشان وتوثقت العلاقة بيننا بشكل كبير وأصبحت تحت إمرته وإشرافه وتعرفــت

على أبو بصير المصري رحمه الله (استشهد في جلال آباد أثناء الاجتياح الأمريكي فترة طالبان) وأبو سياف الجزائري رحمه الله (قتل في الشيشان في الحرب الثانية) وأبو حكيم المدني رحمه الله (قتل في الحرب الشيشانية الثانية أثاء دخول المقاتلين إلى داغستان) وأبو يعقوب الغامدي رحمه الله (قتل في الحرب الشيشانية الثانية) وغيرهم من الشباب التي لاتسعفني الذاكرة لتذكر أسمائهم .

بعد انتهائنا من شق الطرق وتجهيزها ثم استقرارنا في الخنادق الأمامية تغيرت طبيعة حياتنا اليومية حيث قل العمل فيها بعد أن انتهينا من مرحلة تجهيز الطرق ولم يعد لدينا ما نقوم بعمله سوى الحراسة ليلاً والرصد نهاراً لإحدى القواعد الروسية القريبة منا وقضاء وقتنا فيما يفيد ، والمنطقة التي كنا فيها كانت جميلة جداً حيث كنا نتمركز في خنادق على سلسلة جبال متراصة ومن تحتنا كانت غابات كثيفة وأمامها بعض السهول الزراعية فكنا أحياناً نرى قطيعاً من الخيول البرية وهي تتراكض في تلك السهول متنقلة من منطقة إلى أخرى خلف قائدها وكانت تلك

الغابات تعج بالدببة والخنازير البريـــة المتوحـــشة وبعـــض الحيوانات الضارية وكانت أكثر ما نخشاه أوقات الحراسة لا خوفاً منها فنحن نحمل الأسلحة ولكن حركتـــها بـــشكل قريب منك في الليالي المظلمة قد يتسبب في إرباك الجبهـــة كاملة خوفاً من أن يكون تسللاً للقوات الروســـية ولكـــن الحمد لله لم نواجه هذه المشكلة ، وأذكر من العمليات حين قام أبو يعقوب الغامدي رحمه الله بإسقاط مروحية روســـية ناقلة للجنود بصاروخ sam7 وفي إحدى العمليات أثنـــاء الهجوم على مركز روسي استشهد أخونا أبو عثمان اللـــيبي رحمه الله وكان من المقاتلين في أفغانستان سابقاً وأصيب أبو معاذ الإماراتي (والذي توفي في ما بعد في الإمارات بعـــد أن قامت عائلته بنقله بطائرة خاصة من باكستان إلى الإمارات وبعد أن رأى عائلته ورأوه هناك فارق الحياة علماً أنه كان ضابطاً في الجيش الإماراتي فرحمك الله يا أبا معاذ) .

أريد أن أوضح مسألة هنا حول بعض الظروف التي واجهتنا في طاجيكستان مثل الطبيعة الجغرافية أو الحالة السياسية في البلد تلك الفترة ، بالنسبة للطبيعة الجغرافية عندما دخـــل

خطاب إلى طاجيكستان توجه إلى منطقة كولاب التي كنا فيها وتوجه القائد يعقوب البحر رحمه الله (وهو من المنطقة الشرقية من بلاد الحرمين) إلى منطقة بدخشان فكانت المنطقة التي كنا فيها وعرة جداً كونها جبلية فاستلزم العمل فيها لأشهر حتى تمكنا من الاستقرار في الخنادق الأمامية أي بمعنى إيجاد مقر لنا وهذا الشيء أخذ الكثير من وقتنا مما قلل من مستوى العمل العسكري في منطقة كولاب والأمر الآخر أن حزب النهضة الطاجيكي في تلك الفترة كان في حالة مفاوضات مع الحكومة الشيوعية في دوشنبه عاصمة طاجيكستان من أجل وقف القتال والحصول على كراسي في البرلمان وهذا جعل حزب النهضة يضغط على المقاتلين من أجل وقف القتال وهذا ما حصل في نهاية المطاف عندها قرر خطاب الانسحاب من طاجيكستان ورأيه في ذلك أن أهل البلد الذين حملوا السلاح لا يريدون القتال الآن وأنهم مقتنعون بالدخول في السلك السياسي من أجل الحصول على حقوقهم ووقف المظالم التي تمارس ضدهم في طاجيكستان فلماذا بقاء المقاتلين العرب .

لا أخفي مدى الإحباط والغضب الذي أصاب خطاب وأصابنا جميعاً فالمجهود الذي قام به خطاب بشق الطرق وتجهيز المنطقة والتكاليف المادية التي صرفت في هذا الجانب ليست بالقليلة وأخذت من الوقت أشهر وقبل أن يتم فعلياً العمل العسكري يأتي الأمر بتوقف القتال فكان الأمر كارثة بالنسبة للمقاتلين الطاجيك أنفسهم لأنهم أقدموا على عمل سياسي غير مضمون (وهو ما تأكد حدوثه بعد ذلك) وأيضاً كارثة على مجهودات خطاب التي أصبحت هباءً منثوراً إلا من الأجر إن شاء الله .

عندها قرر خطاب بتنفيذ عملية عسكرية أخير وذلك لأجل التخلص من كمية كبيرة من الصواريخ والعتاد العسكري الذي يصعب نقله مرة أخرى وإعادته إلى أفغانستان من حيث أتى وأيضاً حتى لا يخرج خطاب والمقاتلين من طاجيكستان بعد كل ما عملوه دون أن يشفوا غليلهم من الروس ، وكانت طبيعة العملية أن تكون بالقصف بالمدفعية دون الحاجة إلى الاقتحام وهو التكتيك المتعارف عليه وكان موقعي في تلك العملية على مدفع ٨٢ملم المحمول على

الكتف أو مثبت على قاعدة أرضيه وكنت تحت إمرة أبـــو الوليد الغامدي رحمه الله وكان معي في المجموعـــة نفـــسها يعقوب الغامدي رحمه الله واستمرت العملية لمـــدة يـــومين كاملين في حالة قصف متواصل علـــى القاعـــدة الروســـية القريبة منا وكان الطيران الروسي يقوم بجولات استطلاعية وهجومية لتحديد مواقعنا ، وكان هناك استعداد لهذا الأمر بمضادات الطيران وعندما وجد الطيران الروسي المضادات بدأت بالتعامل معه ابتعد عن المنطقة قد استطاعته ، إلا أنـــه استطاع أن يحدد أحد المواقع وكان في هذا الموقـــع القائـــد خطاب رحمه الله والقائد الأفغاني ملا تاج محمد (هذا القائـــد هو أحد القيادات التابعين لعبد رب الرسول سياف ولكنـــه أثناء فتنة القتال بين الأحزاب الأفغانية رفض المشاركة فيها وتوجه مع خطاب إلى طاجيكستان ومعه مقاتليه وقد تعرفت عليه معرفة شخصية ، كان رجلاً ذو دين وخلـــق ومحـــب للعرب جداً ولديه فهم ووعي للجهاد من جانب شـــرعي وليس من جانب قومي وهذا ما رأيته فيه حينـــها ولكـــن للأسف بعد مرور سنوات عندما كنا نقاتل مع طالبان ضد

التحالف الشمالي كان هو يقاتل ضدنا وكان لي معه حديث فترة طالبان بالجهاز اللاسلكي (المخابرة) وسيأتي ذكر هــذه الحادثة في حينها) بعد أن قامت الطائرات بالقصف علــى الموقع شاء الله سبحانه وتعالى أن يقع الصاروخ على القبــة التي تقع فوق مكان تمركز خطاب فسلمه الله والذين معــه من هذا الهجوم ، بعد يوم من هذه العملية بدأنا في ســحب العتاد المتبقي والأسلحة وإرجاعها إلى للمراكــز الخلفيــة استعدادا للانسحاب من مناطق طاجاكستان وأيضاً لأننا كنا نتوقع هجوم شديد من القوات الروسية كرد منــهم علــى تلك العملية ، تراجعنا للمراكــز الخلفيــة تمامــاً وأتممنــا الانسحاب تماماً من جميع الخنــادق والمراكــز الأماميــة ثم انقسمنا إلى مجموعتين بحيث كل مجموعة تتولى نقل جزء من المعدات والأسلحة التي كانت معنا إلى مدينــة تــشياب في داخل أفغانستان وأذكر أنه في آخر ليلة لنا في طاجيكستان عبرنا النهر إلى الضفة المقابلة في أفغانستان وبتنا على ضــفة النهر وكانت الأجواء باردة جداً وممطــرة وكــان بعــض الشباب لا يوجد لديه ما يقيه البرد من كيس نوم أو بطانية

لأنهم أرسلوا أغراضهم مع المجموعة التي ذهبت قبلهم فعانوا تلك الليلة معاناة ليست بالقليلة ، وفي تلك الليلة كان الروس يقومون بقصف مكثف على الجبال التي فيها الخنادق الأمامية التي انسحبنا منها وهم لا يعلمون أننا انسحبنا منها منذ يومين وظلوا طوال تلك الليلة وهم يضيئون المنطقة بقذائف الهاون المضيئة وذلك لأنهم يستعدون للهجوم على المكان أو في حالة خوف ولم يتسنى لنا معرفة ما حصل لأننا تحركنا مع الفجر باتجاه مدينة تشياب مشياً على الأقدام أما البهائم فكانت مخصصة لنقل العتاد والسلاح .

وصلنا في الليل إلى إحدى القرى ونزلنا فيها من أجل المبيت حتى الصباح فتوزعنا في القرية على البيوت فهم يستقبلون الشخص في تلك القرى و يؤمنون له الطعام والمبيت مقابل النقود ،فذهبت أنا وأثنين آخرين من الشباب إلى أحد البيوت للمبيت وطلبنا طعاماً فأخبرنا أن لديه بعض الجبن والبيض فرفضها أحد رفاقي وأصر على أن يحضر لنا تيساً مطبوخاً كاملاً فاستغرب صاحب البيت وسألنا إن كان هناك آخرين سيأتون للعشاء فقلنا له لا ولكننا لم نأكل هذا

الطعام منذ أشــهر (لأن أكلنــا الرئيــسي والــدائم في طاجيكستان كان الخبز الذي كنا نضطر لتكسيره بالحربــة العسكرية حتى نقسّمه بيننا وأيضاً التوت المجفف والــسكر والشاي الأخضر وفي بعض الأحيان نطبخ الرز المسلوق في الماء فقط وفي حالات قليلة كان يأتينا بعض البطيخ ومــرة واحدة أرسلوا لنا تيساً إلى مركزنا الأمامي فوالله لقد أكلنا كبده بدون طبخ من فرحتنا) وبعد أن أحــضر صــاحب البيت التيس المطبوخ مع المرق والخبز ظل واقفاً مــشدوهاً ينظر إلينا ونحن ننقض على التيس وخصوصاً أحدنا الــذي كان من الوزن الثقيل الذي ما كان يضع يده على جزء من التيس إلا ويختفي اللحم منه فأخذ الأفغاني صاحب البيــت يضرب كفاً على كف غير مصدق ويتمتم بكلام لم نفهمه .

وفي طريق عودتنا إلى تشياب في اليوم الثالث كنا نمر علــى قرى تسمى "قرى الأنقور" والأنقور باللغة الفارسية تعــني العنب والسبب في التسمية أنك ترى مد بــصرك أشــجار العنب في هذه المنطقة فكنا ونحن نمشي يصرّ بعض أصحاب المزارع أن نأخذ من عنبه كهدية لأننا غرباء أو كما يسمونه

بلغتهم "مسافر" ، ثم وصلنا إلى تشياب في اليـــوم الثالـــث والحمد لله ثم استرحنا هناك لفترة توجهنا بعدها إلى مدينـــة تخار ثم باتجاه "وادي بنشير " وكان الطريق إلى وادي بنشير يستلزم ثلاثة أيام مشياً حتى نصل إليه وكانت بعض الطرق مغطاة بالثلوج فكنت أنا وأخي أبو بصير المصري نتنـــاوب على ركوب أحد الخيول التي استأجرناها في المنطقة الثلجية ، وفي أحد تلك الأيام وأثناء سيرنا كان معي أحد الإخـــوة نسير مع بعضنا نقطع الوقت بالحديث فمررنا ببائع واضـــعاً بضاعته على صندوق خشبي على الأرض وطلب منا الشراء فسألناه ماذا يبيع فقال أنه " حشيش أصلي ومـــن النـــوع الجيد" فأخبرناه أننا لا ندخن ولا نحشش واعتـــذرنا عـــن الشراء وعندما هممنا بالانـــصراف وجـــه إلينـــا ســـلاحه الكلاشينكوف وقال يجب أن تشتروا مني فتجادلنـــا معـــه محاولة في إقناعه أن هذا الحشيش حرام وليس لـــدينا مـــال لنشتري وأننا غير ملزمين بالشراء منه فغـــضب وقـــال لا تضنوا أني حرامي أو قاطع طريق وإنما أنا أبيـــع أعطـــيكم بضاعه وآخذ ثمنها يعني حلال !!! ، وقال يجب أن تشتروا

مني لأني لم أبع أي شيء منذ الصباح !!! ودخلنا معه في جدل وحينها وصل القائد خطاب ومعه الملا تاج وأخبرناهم بما حصل فغضب الملا تاج محمد وقال له هل تعرف من أنا فقال البائع "لا" بكل غطرسه فأخبره أنه الملا تاج محمد فصعق البائع لسماعه الاسم وسقط السلاح من يده من الخوف وأخذ يعتذر ويتأسف ويقبل قدم الملا تاج حتى يسامحه لكن الملا عنفه وأهانه وضربه وأخذ عليه العهد أن لا يكررها مرة أخرى مع أحد ثم فر البائع هارباً عندما تركه الملا تاج لا يلوي على شيء تاركاً خلفه سلاحه وبضاعته من الحشيش ، وهذا الموقف من أطرف المواقف التي حصلت معي في حياتي ومن أخطرها أيضاً لأننا كان يمكن أن نفقد حياتنا من أجل حشيشه لا علاقة لنا بها .

واصلنا طريقنا ومررنا بوادي بنشير الشهير الذي ذاق الروس فيه المرارة لسنوات ثم بعدها مررنا بمدينة " شريكار " وهي مدينة شمال كابل تبعد سبعين كلم ولي فيها ذكريات لا تنسى وذلك في فترة طالبان وسيأتي ذكرها في حينه ، ثم توجهنا إلى منطقة " شكردرا" و التي يحكمها الملا تاج محمد

الذي كان معنا في طاجيكستان و بتنا فيها ليلـــتين لأخـــذ قسط من الراحة و توجهنا بعدها إلى كابل ثم جلال آباد و من هناك عبرنا الحدود من طورخم إلى باكستان باتجاه مدينة بيشاور .

وللحديث بقية